عمر والنبى

يندر أن يظفر الباحثون فى طبائع الإنسان بمغنم نفسى هو أوفر ثمرة وأنفس محصولا من دراسة عمر بن الخطاب، لأن الظواهر المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمَة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدًا فى النفوس التى نعهدها، ومما يتعذر جدًا حتى فى نفوس الأفذاذ من العظماء.

بيد أن المغنم الأكبر فى هذه الدراسة إنما هو مغنم علم الأخلاق. لأن علم الأخلاق أحوج إلى الاستقلال بالظواهر الطبيعية، وأفقر إلى الإسناد والدعائم التى تقيمها أمثال هذه الدراسات.

فكل نفس - عظمت أو صغرت - فدراستها مغنم لعلم النفس لا شك فيه، كائنة ما كانت النتيجة التى تتأدى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها.

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعبًا وجديدًا إلى أمد بعيد.

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق "فكرية تكليفية" يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب "الأجنبى" عن نوازع الطباع.

فإذا اهتدينا إلى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الواقع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير.

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية هى فى الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذى قلما ينال.

ونفس عمر بن الخطاب هى تلك النفس التى تدعم علم الأخلاق من

الأساس، وهى ذلك الصرح الشامخ الذى ننظر إلى أساسه فكأننا تسلفنا النظر إلى ذروته العليا لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب، إذ هو التقريب الملموس.

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الإصلاح هج فى نفسى عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات.

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل فى طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التى تخيف فيخافها الظالمون.

ومنها فيما نحن بصدده الآن أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين.

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذى يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد، وأن البطل الذى يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة فى غيره، وأن التطلع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه، ممن هم أكبر قدراً وأحق بالإعجاب.

لكن البطل الذى ندريه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان قوى نقض مستطاع لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة.. ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه، ثم يخيل إليك من فرض ولائه لمن يفوقونه أنه خلق للإعجاب بغيره، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب.

فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب، ويؤمن به إيمان إعجاب، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس.

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة فى الدعة وحين المعاملة لجميع صحبه وتابعيه، وكان يعاملهم جميعًا معاملة الإخوان والزملاء، فلا يغمرهم

برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد. فلو جاز أن ينسى أحد فارقًا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذه الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته، ولو نسيانًا إلى حين. ألا أن عمر "العظيم" سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة "يا أخى" فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنه فى العمرة فإذن له وقال: "يا أخى لا تنسنا من دعاتك" . . فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها: "ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس، لقوله يا أخى!" . شهادة لعظمة عمر أنه أهل لذلك الإخاء، لأنه يدرك ما فيه من عظمة، ويشعر بما فيه من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذى يشيع فى قلبه للفرح بهذا الإخاء؟

ليس بالرحيل الذى يحب تواضع المرائين، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أوى هاب مخلوقًا بغير الحق، وبغير الإعجاب.

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحجته الأولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وأنه كما قال: "لو علمت أن أحدًا أقوى منى على هذا الأمر لكان أقدم فتضرب عنقى[1] أحب إلى من أن أليه"[2].

نعم، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذى يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفضلى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار.

لقد كان يسمع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر: "بخ بخ[3] يا ابن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!" .

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه؟ . .

---

(١) العنق: يذكر ويؤنث.

(٢) إليه: مضارع من ولى الأمر فهو يليه وأنا إليه.

(٣) بخ: كلمة تقال عند الرضا بالشىء.

كلا.. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى.. يعرف الإعجاب بما فوقه، يعرف محمداً ويعرف أنه اللحاق به أمل لا يطال، يعرف الإعجاب بطلا معجبًا ببطل، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه.

ومن الخطأ أن يتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه يشعر بضعة فيه.

إن الصغير لا حاجة به إلى تصاغر لأنه صغير، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداره شعوره الدخيل بتفحيم الرواء، وتزوين الطلاء، والتخايل بالمسكن والكساء.

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه ومحال أن تمتلئ نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها. فليس ذلك من معهود الطباع فى حى من الأحياء، ولا تقصر القول على الإنسان.

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر، فأبى أن يركب البرذون[1] وهو يغالب عزة الفتح داخلاً إلى الشام دخول المنتصر، وقيل له فى ذلك فصاح بهم: خلو سبيل جملى! إنما الأمر من ها هنا، وأشار إلى السماء!

وكلما اعتز من حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه مما يرونه فيه من بسطه السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر فى أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية فقال لأصحابه يومًا وقد مر ببعض الشعاب[2] على مقربة من مكة: "لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرع إبل الخطاب، وكان غليظًا يتعبنى، ثم أصبحت وليس فوقى أحد!".

---

(١) البرذون: ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب، عظيم الخليفة غليظ الأعضاء.

(٢) الشعاب: جمع شعب (بكسر الشين) هو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق.

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له: "ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين؟" قال: "إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها"(١).

وانظر هنا إلى كلمة "أمير المؤمنين" يقولها الابن، ثم أنظر إلى كلمة "أباك يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلا خاشعًا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا تصاغرًا يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها، ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهى متناقضة فى النظرة الأولى، فإذا بهذا التمادى يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يسع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فما رأيناه أنه عادل يفوق العدول، وقوى يفوق الأقوياء، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم، ثم هو فى إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الإعجاب.

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال، ولا يهدد "الشخصية" بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه بمن يفوقه غاية الإعجاب، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران.

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر.

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر.

---

(١) أن يضعها: أن يقلل من شأنها.

فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح. فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبى عليه السلام برى يراه، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال.

فمحمد فى بيته وهو صاحب، ومحمد فى شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الأمور.

فكان يشير على النبى عليه السلام أن يحجب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له: إنك علينا يا ابن لخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا!.. وتخرج إحداهن سودة وهى تحسب أن أحداً لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها وبناديها "عرفتك يا سودة!" ليؤكد ضرورة الحجاب. فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن من وراء حجاب.

ولما هم النبى عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أبى كبير المنافقين يوم وفاته تحول عمر حتى قام فى صدره، وأخذ يذكره مساوئ عبد اله وأقاويله فى النكاية بالإسلام، وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم مرة فلن يغفر الله لهم"، وألح فى التذكير حتى أكثر على النبى عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: "أخر عنى يا عمر، لو أعلم إنى إن زدت على السبعين غفر له زدت"، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه.. ثم ما كان إلا يسيراً كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان: "ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره".

وروى أبو هريرة عن النبى عليه السلام أنه أنفذه إلى رهط من المسلمين فقال له: اذهب إليهم "فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستقيتا بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أول من لقى عمر، فصده وعاد به إلى النبى يسأله: "يا رسول الله بأبى أنت وأمى، أبعثت أبا هريرة من لقى يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة؟". قال النبى: نعم. فلم

يتريث عمر أن قال: "فلا تفعل يا رسول الله! فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها. فخلهم يعملون"، فوافقه عليه السلام وقال: "فخلهم!".

وفى التسريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد فى حكمه، فما زال يسأل عن الخمر التى حرمت وبطل فيها الخلاف. وهو هو الذى كانت الخمر شهوة فى الجاهلية يحبها ويكثر منها، ولو شاء لا لتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففى سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأى والإخلاص فى المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذى لا هوادة فيه.

وجرى صلح الحديبية الذى كان ظاهر الغبن فيه على المسلمين، وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين، فقد غمه هذا الصلح غمًا شديداً وذهب إلى أبى بكر يراجعه ويناجيه: علام نعطى الدنية فى ديننا؟ فأجابه أبو بكر: يا عمر الزم غرزك أى رجلك[1] فإنى أشهد أنه رسول الله. وورد عمر أنه ليشهد أنه رسول الله، ثم ذهب فى بعض الروايات إليه عليه السلام فسأله: ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ ورسول الله يجيبه: بلى! بلى! فيعود فيسأل: علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟

فلما ناداه: ابن الخطاب! إنى رسول الله! ولن يضيعنى الله أبداً، ثم علم أنه الفتح المنتظر، ثاب إلى الرضى وكف عن السؤال.

والمحنة ما هى عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن إليه سورة[2]

---

(١) الرحل: كل شىء يعد الرحيل من متاع ومركب.. إلخ.

(٢) سورة الغضب: وثوبه، سورة السلطان سطوته واعتداؤه.

طبعه. فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عاملهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحداً ممن يبحثون إليها، وأن يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله، وهذه محنة وردت على حمية[1] عمر بالوارد الجلل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف. ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه. فبينما هم يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله. فقام إليه سهيل[2] - وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح - فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع إلى قريش، وأبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فواساه النبى ودعاه إلى الصبر والاحتساب[3]، ووثب عمر إليه يمشى إلى جنبه ويدنى منه قائم السيف ويقول له: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. ورجا - كما قال بعد ذلك - أن يأخذ جندل سيفه فيضرب به أباه.. قال: ولكن الرجل ضن بأبيه ونفذت القضية.

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية. ولأياما[4] سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيده ومعلمه وهاديه. ولاسيما حين ناداه: ابن الخطاب! إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر ا لتى لا يحيد عنها ولا يأباها النبى عليه السلام، وكثيراً ما جاراه ما أشار به وعارض فيه. فلا جرم يراجع النبى فى كل عمل أو رأى لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة، وما قلت خواطره حتى تثوب إلى قرار.

---

(١) الحمية: الأنفة، والمراد أنها نزلت على أنفه عمر وكبرياثه نزولا عظيما.

(٢) سهيل: هو أبوه.

(٣) الاحتساب: الصبر وادخار الأجر عند الله على هذا الصبر.

(٤) لأياما: اللائى الشدة والمشقة. يقال فعل ذلك بعد لأى، ولأيا عرفت الشىء، أو لأياما.

اللهم إلا أن نستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتى الخليقة العمرية بأية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضلع بجلائل المهمات. فلما دخل النبى عليه السلام فى غمرة الموت ودعا بطرس[1] يملى على المسلمين كتابًا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير، وقال: إن النبى ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا[2]. ومال النبى إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب. ولو قد علم النبى أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين.

وكانت هذه سنته فى حياة النبى وبعد موته فى كل عمل لا يستريح إليه، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيًا وميتًا فى مسألة ليست من مسائل الوحى الذى فيه فصل الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده المعارضة أمر مطاع.

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش إلى البقاء، وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام. فقد ولاه النبى القيادة ومات عليه السلام وهو فى أول الطريق، فقال أسامة لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله وثقل[3] رسول الله فاستأذنه يأذن إلى أن أرجع بالناس، فإن معى وجوه الناس[4]، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون"، وقالت الأنصار: "فإن أبى أن نمضى فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا سنًا من أسامة".

وغضب أبو بكر وكان جالسًا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعلمه رسول الله وتأمرنى أن أنزعه؟

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذى لا

---

(١) الطرس: الصحيفة. (٢) حسبنا: يكفينا.

(٣) وجوه الناس: أكابرهم.

(٤) الثقل: الحشم والمتاع.

رجعة فيه، وعمر جندى متى صرح[1] له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له إلا أن يطع.

وختمت سنة النبى بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعًا إليها من عمر. ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله. إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية، فخاف أبا بكر رضى الله عنه فى انقطاعه لعينيه ابن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما: إن رسول الله كان يتألفكما[2] على الإسلام وهو يومئذ ذليل، وأن الله قد أعز الإسلام.. "فاذهبا فاجهدا جهدكما؟.

فقد علم سنة النبى مع "المؤلفة قلوبهم" ولم يغفل عن سببها ومؤقتها، فهى سنة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألقوها من صاحب الرسالة، إذا تغيرت الحكمة واختفت العلة، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والأنفال[3].

ولمثل هذا السبب ولا شك فهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك ولم يكن منهيًا عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السلام. فكان الرجل يتزوج المرأة لأجل معلوم ثم يتركها. وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عنها عمر فى أيام خلافته وقال: "متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما".

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلى

---

(١) صرح الأمر: وضح. (٢) يتألفكما: يعطيكما ليستميل قلوبكما.

(٣) الأنفال: جمع نفل وهو الغنيمة.

مأتيها ومـراميها، فحسبنا منهـا دلائل استقلاله وصراحة عقله فـيما سردناه، وحسب الإسلام فخراً أن يؤمن به الإنسان وإيمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقـلال عمر. فالإيمـان فى أقضاه لا يعطل الرأى المستـقل فى أقصاه، وكل صفـة فى عمر فـهى صفقـة مستقـصية لا وسط فـيها. إذا آمن فـذلك غاية الإيمـان، وإذا استـقل فـذلك غاية الاسـتقـلال، وإذا أعـجب فذلك غـاية الإعجـاب. . وإن الظفر الذى يـظفره علم الأخـلاق من دراستـه لمبعثـه هذا الشاهد من الصفـات التى تتناقض فى ظاهرها وهى على عهدنا بهـا فى عمر متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرها.

فإن لم يكن فى دراسـة عمر إلا أن نـرى رجلا عادلا بالغًـا فى عدله، قويًا بالغًا فى قوته، معجبًا بالبطولة بالغًا فى إعجابه، مستقلا بالرأى بالغًا فى استقلاله، لكفى بذلك ظفراً لعلم الأخـلاق، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحـقائق التى تسـتكثر على عـشرات السـير، وهى أن القـوة لا تناقض العدل، وأن البطولة لا تناقض الإعجاب وأن الأعاجب لا يناقض الاستقلال، وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدينه وملامح سماه.

وكانت مودة النبى لعمر كمودة عمـر للنبى شرفًا له من جانبيه، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهادية.

كانت نظرة إليـه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصـحابه فلم يكن أحد يكـبر عمـر كان يكبـره أكبـر عارفـيه، ولم يكن رضـاه عن مخالـفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافـقاته وتسليماته. لأن كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيجمدها ويرجو للإسلام خـيراً منها، بل يدخر للإسلام سورته[1] كما يدخـر له تسليمه، ويروضه رياضـة الإمام لمريده الذى يهيئه للإمـامة بعد حين، ويشـجعه بـقبول الحـسن من رأيه تشجيع من يثـبت فيـه حسن الرأى ويستزيده منه.

(١) سورته: سورة الغضب وتوبه، وسورة السلطان سطوته.

ولا يتأتى أن ينظر النبى الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الإلهام الدينى والبصيرة الروحية، فكان عليه السلام يقول فيه: "قد كان قبلكم وهى الإلهام الدينى والبصيرة الروحية، فكان عليه السلام يقول فيه: "قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر".

ومثله قوله فى بعض ما نقل عنه عليه السلام: "لو كان بعدى نبى لكان عمر ابن الخطاب" وقوله: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"... وقوله: "عمر ابن الخطاب معى حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق يعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان".

وتلك لمحات نبى ملهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء... وإن فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس إلى الضمير، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر، وفاتح عهد روحى فى تاريخ الإنسان.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن محمداً قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه. وراقبه إسلامه وبعد إسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئًا كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل، فهى الخصلة التى تلافيها فيها وتقاربًا من قبلها، وإن كان محمداً لأرحب صدراً وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل، فلا يد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لا بد منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم.

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريع ذلك الشاعر الذى كان يشهد النبى بعض الأماديح فاستنصته[1] إذ دخل عليهما

(١) استنصته: طلب منه السكوت والإنصات.

عمر والشاعر لا يعرفه. فصاح: واثكلاه[1]! من هذا الذى أسكت له عند النبى؟ فقال النبى: هذا عمر... هذا رجل لا يحب الباطل!".

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبى مرات، فلا يسمعها السامع فيحظر له أن محمداً كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر. أو كان يهوى اللغو يعرض عمر عن سماعه... وإنما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه فى مناهج الحق ويدريه على كراهة الباطل، ويعلم أن الإمام يطبق مالا يطيقه المريد ويتبع صدره لما تضيق به صدور تابعيه، وأن محمداً أراد أن يعود الناس مهابة عمر، وأن يستبقى لعمر سورته فى محاربة الضلال، والأيام كفيلة بتوريض تلك السورة فيما ينبغى أن تراض عليه.

وهنا يتجلى مذهبان فى كراهة الباطل، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد.

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب، ويرفع له سلاحه حيثما رآه، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه... لأنه يعلم ضروبًا من الباطل وضروبًا من الإنكار. ومن الإنكار أحيانًا أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على متحف الطفل الصغير، وأن يتربص به الأيام حتى يزول، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب، وهو بذلك قد أعد له ضروبًا من الإنكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له فى ميدان واحد.

أتقول إن الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبى وخليفة!؟

إن قلنا ذلك فقد قلنا حقًا جامعًا لا شبهة فيه، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء... فمحمد نبى وعمر خليفة ما فى ذلك خلاف. ولا بد بينهما من فارق ما فى ذلك خبر جديد، فما هو الفارق الذى لا يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

---

(١) الثكل: فقد الحبيب، وكلمه واثكلاه.. صيغة من صيغ الندبة يراد بها التحصر وإبداء الدهشة هنا.

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم.

فالنبى رجلا عظيمًا وكفى، بل لا بد أن يكون إنسانًا عظيمًا فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التى تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب آدم. فيكون عارفًا بها وإن لم يكن متصفًا بها، قادرًا على علاجها. وإن لم يكن معرضًا لأدوائها، شاملا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد[1]، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخبر[2] بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شىء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها آفاقًا كآفاقها هى آفاق الروح.

ومن الصغائر الآدمية التى ما يطيقها الإنسان العظيم ويبرم بها الرجل العظيم كل غرور صبيانى بنفوس الناس، وهو ضروب ليست لها نهاية: غرور الشاعر بأماديحه، وغرور الفنان بصنعته، وغرور المرأة بجمالها، وغرور الشيخ بتراثه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعمله... وفى كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليما وهدى كما تجرى عرضًا غير ظاهر قصد فيه التعليم والتلقين.

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه فى هذه الضروب شتى الفوائد، كما كما ظهر من سياسته فى أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبى عليه السلام بقيد الحياة.

فقد أشار على النبى بقتل بن أبى بن سلول حين مشى بالفتنة بينا المسلمين. فأبى النبى وترك عبد الله يمضى فى شططه حتى أنكره قومه وعنفوه، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت[3]، فقال النبى لعمر حين

---

(١) الأنداد: جمع ند وهو النظير الكفء.

(٢) أخبر: أكثر خبره.

(٣) كان من المنافقين وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" فغضب الرسول والصحابة لقولته.

بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلتـه، وقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

وكان عمر يستكثر صلاة النبى على عبد الله بن أبى بعد موته ويستعصم أن يهبه له قـميصه وأن يكفنه أهله فى ذلك القمـيص، وكان النبى يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى إسـلامه، وبلغ من إخـلاصه أنه اقـترح على النبى قـتل أبيه، وسئل الـنبى كما جـاء فى بعض الروايات: لم وجـهت إليه بقميـصك وهو كافر؟ فقـال: إن قميصى لن يغنى عنه من الله شـيئًا، وأننى أؤمل من الله أن يدخل فى الإسـلام كثـيـرًا بهذا السـبب! فقل إن ألفًـا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعـيمهم يطلب الاستشفاء بـثوب الرسول، وخرجت الصحابة وعمر فى طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوى الحكيم.

وشبيه بدرس عبـد الله بن أبى درس الخطيب المفوه بن عمرو الذى أسر فى بدر فأشار عمر على النبى بكسر ثنيتيه، السفلين ليعجز عن الكلام إذ كان مشفوق الشفة السفلى.. فأبى النبى "عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه"، فما زال وما زال عمر حتى رآه فى حروب الردة بقطع بلسانه كما يقطع السيف، فحمد له ذلك المقام.

وجاء الفتح بعد صلح الحـديبية فرأى عمر كما رأى المعـارضون معه أن قريشًـا خسرت ولم تربح بالصلـح الذى عارضوه، وأن المسلمـين ربحوا ولم يخسروا بقبوله، وأنهم زادوا عدداً وزادوا حلفاء من غير المسلمين، وأن الذين رفضهم النبى من تـابعيه عملا بالصلح لم ينفـعوا قريشًا بل كـانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتـال. وبدا ذلك من مبدأ الأمور لعـمر فاعتبـر به وقال: "ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعـتنق من الذى صنعت يومئذ مخـافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً".

وتجتمع خلاصـة هذه الدروس كلها فى خير واحد من أخبـار عمر بعد

ولايته الخلافة، وذلك حين بلعوه فتح "تستر" وذكروا له أن رجلا أرتد عن الإسلام فقتلوه: فلامهم على قتله وقال لهم: "هلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفًا فاستتبتموه[1]؟ اللهم لم شهد ولم آمر لم أرض إذ بلغنى".

فهذا عمر تلميذ محمد فى الإسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس ومعنى ذلك جميعه أن محمداً أعظم من عمر، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن النبى عليه السلام كان يعلم ما يحتاج إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس، فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة الباطل لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة[2] بطبعه، ولكنه قد يعوزه حينا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل وسيما فى فوعة الشباب[3] وألا يأسى على الحق أن تفوته معركة زائل فى صراعة الدائم مع خصمه القديم، فهى معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة، ولا تزال سجالا منظورة العواقب فى ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء.

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء فى معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعًا لبسوا بأقوياء، وأن الناس جميعًا بعمر بن الخطاب، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين، وإذا استطاع أن يتصدى للموت فى كل لحظة فليس ذلك فى وسع كل مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير وروية. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلا لما هم أهل له وكفئوا لما هم قادرون عليه،

(١) استتبتموه: رجوتم توبته. (٢) موشوجة بطبعه: أى موصولة به مرتبطة.

(٣) فوعة الشباب: حدته.

ولهم من الشرف فى نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف فى تذكارها ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة فى عهد النبى عليه السلام، فكان يفضى إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه فكره[1]، مطمئنًا إلى مرجع الرأى ومقطع القول بين يديه، شاعراً يواجبه الأول أحسن شعور فى هذا المقام، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يضن بشىء من عونه، فهو يعوض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن نعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير.

مثل عمر فى هذه المواقف صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة[2] فيبسط ما عنده من المال جميعًا ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنين وأكرم الواجبين، وهو الواجب يليق بعمر فى صحبة الرسول.

ولا يحسن قارئ أننا نعتسف[3] التأويل والتخريج لننظر إلى عمر فى أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه. فما تقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة فى عهد رسول الله، وتفسيره - كما قال غير مرة - أنه كان سيفًا للرسول إن شاء ضرب وإن شاء أغمده فى قرابه، وأنه كان جلوازه[4] القائم بين يديه، وليس من شأن المجلواز أن يمسك كثيراً أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بإمساكه، ويرد إلى الهوادة واللين.

بل هذا نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدة عمر ولينه، فكلما تحدثوا إليه بغلظته قال: إنما يشتد لأنه يرانى لينًا، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

---

(١) تمليه بادرة فكرة: أى بما يتأتى له من الرأى السريع. (٢) الحازبة: الشديدة.

(٣) الاعتساف: الأخذ على غير الطريق، يعنى أننا نحمل التأويل فوق ما يطبق.

(٤) الجلواز: الشرطى.

فكان جميلا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضار وكان أفضل واجبيه لا مراء أن يعرض البأس حتى يؤتى، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه.

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خلفيًا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل إليها له ولم نجعل به إلى تقديم ما عنده "والجود بأقصى جوده" فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وماشيها لما انتفع بالقدوة ولا أغنت معه المثل والتجاريب.

ومهما يكن من حاجته إلى دروس معلمة وهادية فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين. فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام إلا كان مفتقرًا إلى جانب هديه وتهذيبه وتقويمه، وما كان بأشد افتقارًا من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزه من مواضع الهدى، والتهذيب، والتقويم.

وواضح من هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام. فقد دعاه حتى وصل الأمر إليه رضى الله عنه فلباه. وتفصيل بالناس: فى رواية البخارى أن النبى اشتد عليه المرض فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس: يسمع الناس من البكاء. فلو أمرت عمر؟ فعاد النبى يقول، مروا أبا بكر فليصل! فعاودته، فقال مرة أخرى: مروه فليصل، إنكن صواحب يوسف[1].

---

(١) العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء، والإشارة إلى موقف النساء فى قصة يوسف عليه السلام.

وحدث عبد الله بن أبى بلالا دعا النبى إلى الصلاة فقال: مروا من يصلى بالناس، "فخرجت فإذا عمر فى الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس. فقام، فلما كبر سمع رسول الله صل الله عليه وسلم صوته، وكان عمر رجلا مجهراً[1]. فقال. فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون. فبعث إلى أبى بكر بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس".

قال عبد الله بن أبى زمعة أن عمر لقينى فقال لى: ويحك! ماذا صنعت بى يا ابن أبى زمعة؟ والله ما ظنت حين أمرتنى إلا أن رسول الله ﷺ أمرك. ولولا ذلك ما صليت بالناس.. قلت: والله ما أمرنى رسول الله ﷺ بذلك! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين أن النبى عليه السلام قص إلى اختيار أبى بكر للقيام فى مقامه من إمامة المسلمين ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم.

فعلى أى ؟ نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد ورويه ولم يصدر عن مصادفة واتفاق؟ وعلى أى وجه تساءل النبى عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال: "يأتى الله ذلك والمسلمون"؟

أننا لا نفهم ذلك على وجه واحد يجمل بمحمد ويجعل بأبى بكر ونجعل بعمر كما يجمل بالمسلمين.

فمن البديه أن ينظر النبى فى اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد.

فإذا نظر النبى إلى جميع الاعتبارات فأى غضاضة عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه؟

---

(١) يجهر: مرتفع الصوت.

إن اختيار أبى بكر للإسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين. ولكن لغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق إلى الإسلام وثانى أثنين فى الغار، وأقمن[1] أن تبطل حوله منافسة الأنداد، وله الرأى الصائب والشجاعة المأثورة والإيمان الثابت والمسألة المرضية والحق الظاهر فى الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه الموقف الذى كان منظوراً بعد موت النبى عليه السلام، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يغنيان إذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون. فإذا تأزمت واضطربت ونفذت حلية حتى نبذه أبو بكر فى رفقه وهوادته فذلك إذن موطن الإجماع، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواه فصلابتهم أقمن إذن أن تنعطف بليته إلى الإجماع الذى لا شذوذ فيه.

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب، وقد نظر فى استخلافه إلى كل اعتبار، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

ومما نظر إليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك. فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر، وإذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج إليها فسينتفع الإسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه، يوم تغنى الصلابة فى مدافعه الأعداء ما أغناه الرفق فى تأليف الأوداد[2] ولا يحسبن قارئ هنا أيضا أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظوراً إليه قبل أن ينكشف عنه الغيب، وقد نظر إليه النبى عليه

(١) أقمن: أجدر وأولى.

(٢) الأوداء: جمع وديد وصاحب المودة.

السلام فقال: "أريت فى المنام أنى أنزع يدلو بكرة على قليب[1] "فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا، ولله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا، فلم أر عبقريا يفرى فريه، حتى روى الناس وضربوا بعطن[2]". ولم يخفَ معنى الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد، وهو الذى أشار إليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن "الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته".

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها فى عصرنا. فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضعية ونواحيها الخاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأنى نقلها بالكتابة والتدوين. ومتى كانت هذه التقديرات التى فصلت فى مسألة الترشيح للخلافة فأى غضاضة فيها على عمر..؟ أنها شىء لا يتناوله وحده، وليست لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه، وإن الذى حدث لا يعلو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديما لصالح فى تلك الأحوال، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة، فأبو بكر كف للخلافة، وعمر كف للخلافة، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة فى رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر.. وذلك أنه عليه السلام ولم يبرم قط أمر فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولاسيما فى مسألة الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس إثار وتوقير، ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير، وانتفاع بعمل كل عامل، واقتدار كل قدير.

---

(١) القليب: البئر، والذنوب: الدلو المملؤة.

(٢) والعطن: مبرك الإبل حول الماء والغرب: الدلو العظيمة.

بقى جانب من الجوانب العلاقة بين النبى وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمدارها واطلاعها على طريقة عمر فى الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت، وبين عمر وابنى عم النبى الكبيرين على وابن عباس بعد انتقال النبى إلى الرفيق الأعلى.

فالذين أولعوا فى التاريخ يخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيراً فى هذه العلاقة، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم مناجزة لعصبية فيه عليهم، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن فى هذه الوجهة. وكل ما حفظته لنا أبناء العصر فإنما تخلص بما إلى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه. وهى الوفاء المحض لذكرى النبى عليه السلام فى آله وخاصة بينه، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبى النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة، وكان لهم التفصيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة، وفضلهم عمر على أقرب ل الناس إليه فى اللقاء والحفاوة، فكان فى بعض الأيام ينتظر الحسين بن على رضى الله عنه فذهب إليه الحسين فلقى عبد الله ابن عمر فى الطريق فسأله: من أين جئت؟ قال: استأذنت على عمر فلم يأذن لى. فرجع الحسين ولم يذهب إليه.. ثم لقيه معاتبًا وسأله: ما منعك يا حسين أن تأتينى؟ قال: قد أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت.. فعز ذلك على عمر وقال له: وأنت عندى مثله! وأنت عندى مثله؟ وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم؟

وكسا عمر وأصحاب فلم يكن فى الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضى الله عنهما، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها: الآن طابت نفسى!

وسافر إلى الشام فاستخلف عليا رضى الله عنه على المدينة. وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه فى قضائه متحرجًا من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله. استفتاء بعضهم فى مجلسه فقال: اتبعونى، وأخذهم إلى على فذكر له المسألة فقال على: ألا أرسلت إلى؟ قال عمر: أنا أحق باتيانك.

وكذلك كان يستفتى ابن عباس فى الدين والأدب ولا يلقاه باحثا مسترسلا فى الحديث إلا قال معجبا متبسطا: غص غواص![1] وقلما سئل فى أمر وابن عباس حاضر إلا قال بشير إليه: عليكم بالخير بها.

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه، وفى ذلك يقول لابن عباس: أنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم والله ما أدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك؟ أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم، ولا بد من عتاب؟

أما مسألة الخلافة الذى فالذى يزعمه فيها الدين يخوضون فى القضايا والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعتمد أن يحول بين على والخلافة بصرفه النبى عن كتابه للكتاب الذى أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده، ويزعمون أنه هو قد حال بين على والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها.

---

(١) الغموص: النزول تحت الماء، يقال: فلان يغوص على حقائق العلم، إذا كان كثير البحث فيه.

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة إلى مبايعة أبى بكر كما جاء فى بعض الروايات التى ترجح صحتها، وخلاصتها "أن عمر أتى منزل على وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج الزبير مصلتًا بالسيف فسقط من يده فوثبوا عليه[1] فأخذوه.." أو قال لهما فى رواية أخرى: "والله لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان"

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة وعدوها من إصرار عمر على الإجحاف بعلى وإقصاء بنى هاشم عن الخلافة.

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار على للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث إلى كل ذى شأن فى هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه.

فالنبى عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة كالإشارة التى فهم المسلمون منها إيثار أبى بكر بالتقديم، وهى إشارته إليه أن يصلى بالناس.

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ولم يكن بين على وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج على عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة. فلو شاء لدعى به وعهد إليه.

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا إكراه فيه نرجع إلى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاة فنرى أنه كان بجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمدًا صلوات الله عليه أراد خلافة على فحيل بينه وبين الجهر بما أراد.

---

(١) مصلتا بالسيف، مجردا السيف من غمده.

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة الذى بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابه - كما قال - حرصًا سيئًا وخلافًا لا يحسمه رأى واحد، وكانت حيرته عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف، فلما قيل وهو طعين يودع الحياة: ماذا تقول الله عز وجل إذا لقيته ولم تستخف على عباده؟.. وأصابته كآبة، ثم نكس رأسه طويلا رفع رأسه وقال: "إن الله تعالى حافظ الدين، ورأى ذلك أفعل فقد سن لى. إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر".

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناسًا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو لرشحهم لها كل مختار.

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذى أوحى إليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غير. فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحدًا فيما يحاول النجاة منه، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجماع، وينحسم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون.

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأى على اختيار على بعد المشاورة فقال لابنه: لو ولوها الأجلح "أى المنحسر الشعر" لسلك بهم الطريق، فسأله ابنه: فما يمنعك أمير المؤمنين أن تقدم عليا؟ قال: أكره أن أحملها حيًا وميتًا.

وقيما عدا الاستخلاف بعد النبى والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين على وغيره.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبة دون غيرها بلغة ما بلغت منزلتها ولم كيره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل، وبلغة أنهم يشكونه فأعلن فى الناس "إن قريش يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما أنفسهم. ألا إن فى قريش من يضمن الفرقة ويروم خلع الربقة[1]، أما وابن الخطاب حى فلا. أنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد".

وكان نرجر قومه بنى عدى كلما أحسن منهم الطمع فى خلافته لأنه واحد منهم، فيصارحهم قائلا: "بخ بخ بنى عدى. أردتم الأكل على ظهرى، وأن أذهب حسناتى لمن، لا والله حتى يأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر.." أى وإن كتبتم فى الأعطية آخر الناس. وهو الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة ابن شعبة الذين زين له استخلافه لا أرب[2] لنا فى أموركم، وما خمدتها فأرغب فيها لأحد من بنى. إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد".

وجمع عليًا وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت إلى على فقال: "اتق الله يا على إن وليت شيئًا، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين".

والتفت إلى عثمان فقال: "اتق الله إن وليت شيًا فلا تحملن بنى معيط على رقاب المسلمين"، أو قال بنى أمية.

وكان أكبر همه أن يعصم الإسلام الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس، وكثيراً ما سأل: والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك؟ مستعيذاً من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير.. وكلمته لابن عباس حيث قال: "إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وإن قريشًا اختارت لأنفسها

---

(١) الربقة جبل تشد به البهيمة. وفى الحديث "خلع ربقة الإسلام من عنقه.

(٢) الأرب: الغرض والغاية.

فأصابت" هي كلمته حيثما تكلم في هذا الصدد لا يخص بها بيتًا ولا معشرًا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة، إلا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعًا حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق.

وما كانت لعمر صرامة مع على ولم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنة والذود عن الوحدة فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم من الخليفة بعده: "إن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ[1] رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فأضرب رءوسها. فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وأقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتماع عليه الناس".

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين إلا أنه خارج من الاختيار ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجًا من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه.

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يحمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس. هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله: "عمر بن الخطاب معى حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان".

---

(١) الشدخ: كسر الشيء الأجوف.